قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي
السنة الثانية تاريخ مقيـاس : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس

المحاضرة الثالثة: عصر الدويلات المستقلة في بلاد المغرب والأندلس

محاور المحاضرة :

1- الدولة الرستمية 160-296هـ.

2- دولة الأدارسة 172-375هـ.

3- دولة الأغالبة 184-296هـ.

1- الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط 160-296 هـ:

أ- ظروف التأسيس: قامت الدولة الرستمية في ظروف خاصة، ميزها اشتعال بلاد المغرب بالثورات ضد ولاة الدولة الأموية ثم العباسية، وبذلت الخلافة جهودا حثيثة للقضاء على ثورات البربر الصفرية، لكن الهزيمة كانت تلاحقهم، وبعد نجاح الصفرية (ورفجومة) في دخول القيروان والقيام بأعمال شنيعة، رأى الإباضية ضرورة الوقوف أمام المعتدي على حرمات الله، فكسروا شوكة الصفرية، واستطاع إمامهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري دخول القيروان وتخليصها من يد ورفجومة سنة 141هـ.[1]

استطاعت الخلافة العباسية إلحاق الهزيمة بالإباضية سنة 144هـ، وتقتل أبا الخطاب، ففر عبد الرحمان بن رستم ومن معه من القيروان غربا، وعبر وادي الشلف، حتى وصلوا منطقة جبلية وثبتوا عند بلدة تسمى تيهرت، وبعد سنوات بايعوا عبد الرحمان بن رستم بالإمامة، وأعلنوا قيام الدولة الرستمية.[2]

ب-أشهر الأئمة:

- عبد الرحمان بن رستم:

انتخب شيوخ الإباضية ورؤساء القبائل عبد الرحمان بن رستم وبايعوه بالإمامة لما اتصف به من صفات الفضل والعلم، فقامت تجربة سياسية جديدة في تاريخ الإسلام، وهي إقامة دولة على أسس الانتخاب أو الاختيار الحر(أقرب إلى النظام الجمهوري)، سار عبد الرحمان بن رستم في الناس بالعدل، واهتم بشؤون الدين، وأشاع العدالة، فتقاطرت على تيهرت جاليات مختلفة من الكوفيين والبصريين والمصريين و القرويين والأندلسيين، وعاشوا جميعا في أمان في كنف الدولة الرستمية وتحت قيادة عبد الرحمان بن رستم.

- عبد الوهاب بن عبد الرحمان: أوصى عبد الرحمان بعدما شعر بدنو أجله بستة من شيوخ المذهب وأضاف إليهم إبنه عبد الوهاب، وبعد مناقشات طويلة خلص الاباضيون إلى اختيار عبد الوهاب، فكان بمثابة الباب لفتح باب الفتنة داخل البيت الإباضي، فظهرت فرقة النكارية من الذين أنكروا تولي عبد الوهاب منصب الإمامة، وعُرف مؤيدوه بالوهبية أو الوهابية.
- أفلح بن عبد الوهاب: تولى المنصب بعد وفاة أبيه، ودخل في صراع مع زعيم النكارية، حتى تمكن من قتله.
- اليقظان بن أبي اليقظان: تولى الحكم قبله ثلاثة أئمة، وهو آخرهم، حيث سقطت الدولة في عهدة على يد أبي عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية سنة 297هـ.

2- دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى 172-365هـ:

يرى أحد الباحثين أنه من الخطأ الاعتقاد أن دولة الأدارسة دولة شيعية، لأن آل البيت لايتشيعون لأحد، بل الناس يتشيع إليهم، وإنما هي دولة علوية هاشمية سنية، قامت سنة 174هـ بالمغرب الأقصى، حيث تقاطعت طوحات إدريس بن عبد الله

المؤسس، مع تطلعات زعيم قبيلة أوربة إسحاق بن محمد في إقامة كيان سياسي يخرج قبيلته من حالة الضعف والخضوع لسيطرة برغواطة. وهكذا نجح إدريس الأول في تأسيس دولة حملت اسمه بالمغرب الأقصى سنة 172هـ.[3]

غير أن محمود إسماعيل عبد الرزاق يرى أن قيام دولة الأدارسة جاء بناء على تحالف بين المذهب الشيعي الزيدي الذي كان يعتنقه إدريس الأول دون الإفصاح عن حقيقة معتقده مع مذهب الاعتزال الذي كان منتشرا في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين سكان قبائل أوربة، حتى أن زعيمها محمد بن إسحاق الأوربي كان معتزلي، والهدف من هذا التحالف الوصول إلى إقامة الكيان السياسي المنشود.[4]

لكن ذلك أقلق الخلافة العباسية، خاصة بعد أن مدَّ إدريس نفوذه إلى مدينة تلمسان.فهم هارون الرشيد بإرسال جيش للقضاء على إدريس ولكنه خشي الهزيمة لبعد الشقة، ففكر في استخدام الحيلة للتخلص من إدريس، وتقول رواية انه دس إليه مولى يسمى الشماخ تمكن من الدخول في خاصة إدريس متظاهرا بحبه لآل البيت، وفراره من بطش العباسيين، إلى أن وجد فرصة فأهدى إليه عطرا مسموما قضى عليه. وهكذا فقدت دولة الأدارسة مؤسسها في سنة 175هـ بعد ثلاث سنوات ونصف فقط من قيامها.

بات مقعد الإمامة شاغرًا عقب اغتيال إدريس، والتف البربر حول مولاه راشد، ينتظرون مولود كنزة البربرية زوجة إدريس، فلما وضعت حملها أسموه إدريس تبركًا باسم والده، وتعهده راشد بتربيته ورعايته، حتى بلغ الحادية عشرة من عمره فأقبلت القبائل على مبايعته بالإمامة، فدعا ذلك الخلافة العباسية إلى التحرك ثانية للقضاء على هذه الدولة، وأوكلت هذه المهمة إلى والى المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب الذي نجح في استمالة مجموعة من البربر بأمواله وهداياه، ثم أوكل إليهم مهمة قتل راشد، فانتقلت كفالة إدريس إلى خالد بن يزيد، وجُدِّدت له البيعة سنة 188هـ، حين بلغ الثالثة عشرة من عمره، وأصبح في سن تؤهله لخلع الوصاية،

وإدارة البلاد، فتمكن من جمع أهل المغرب من حوله، ولم يجد صعوبة في قيادتهم والاستيلاء على الإقليم جميعه، وتوسع في فتوحاته وضم أجزاء من المغرب الأوسط، وقضى على أي أثر للنفوذ العباسي فيه، واتخذ عاصمته في فاس التي بناها سنة 192هـ، وقد كانت هذه الدولة نموذجا للدولة المعادية للدولة العباسية.

حكم بعد إدريس الثاني إحدى عشر إماما، كان أولهم محمد بن إدريس بن إدريس (213 - 234هـ) أكبر أبناء إدريس الثاني، تولى الإمامة سنة 213هـ، فنفذ وصية جدته كنزة بتقسيم أقاليم الدولة بين إخوته، فكان لذلك أثره السيئ على وحدة دولة الأدارسة، ولما يمضِ على قيامها أربعين سنة ، فطمع كل أخٍ في الاستقلال بإقليمه، وشقَّ عصا الطاعة على السلطة المركزية. ولكن محمد بن إدريس تصدى لإخوته وضم ممتلكات أخويه عيسى والقاسم بعد هزيمتهما إلى أخيه عمر. ولم تشهد البلاد بعد هذا التقسيم استقرارًا إلا في بعض الفترات مثل: عهد يحيى بن محمد الذي تولى الإمامة سنة 234هـ، فازدهرت في عهده مدينة فاس وشهدت تطورًا ملحوظًا في أنشطتها، ثم عهد يحيى الرابع بن إدريس بن عمر بن إدريس (292- 310هـ)، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان أعظم ملوك الأدارسة قوة وسلطانًا وصلاحًا وورعًا وفقهًا ودينًا، وقد ظل بالحكم حتى غزا دولة الأدارسة قائد العبيديين مصالة بن حبوس، والتقى به قرب مكناس فهُزم الأدارسة وحاصر العبيديون فاس، واضطر يحيى إلى الصلح والاعتراف بإمامة عبيد الله المهدي في سنة 305هـ، فدخلت دولة الأدارسة منذ ذلك الحين في طور التبعية للفاطميين تارة، وللحكم الأموي بالأندلس تارة أخرى حتى سنة 375هـ وهو تاريخ انتهاء دولة الأدارسة بمقتل الحسن بن قنون بأمر من المنصور بن أبي عامر الأندلسي.

3- دولة الأغالبة بالمغرب الأدنى 184-296هـ:

ينسب الأغالبة إلى الأغلب بن سالم التميمي، وهو عربي من قبيلة تميم التي أسهمت في القضاء على الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية. وكان الأغلب بن سالم من اصحاب أبي مسلم الخرساني ومن أشجع الرجال. ولما ساءت أحوال إفريقية من جراء ثورة الخوارج، أمر الخليفة المنصور محمد ابن الاشعث بإقرار الأمور فيها فخرج وبصحبته الأغلب بن سالم على رأس جيش كبير تمكن من قمع الفتن، ثم ولاه الزاب فاتخذ طبنة مقرا له. [5]

وفي سنة 148هـ ثار جند الخلافة على ابن الأشعث وأجبروه على مغادرة البلاد، عهد الخليفة المنصور بولاية أفريقية إلى الأغلب بن سالم وأوصاه بتحصين مدينة القيروان، وتنظيم الدفاع عنها فغادر طبنة إلى القيروان وتمكن من القضاء على فتن الجند الشامي هناك.

واصل الاغلب سياسة من سبقوه في قمع ثورات الخوارج، ولاحق الصفرية الذي استفحل خطرهم بعد مبايعة أبي قرة المغيلي بالخلافة وأيده الزناتيون بتلمسان، وانتهى الصراع بيهما بمقتل الأغلب، وكان قد خلف إبنا في العاشرة من عمره هو إبراهيم بن الأغلب.

يرتبط ظهور ابن الأغلب على مسرح الأحداث الإفريقية في خدمته في جيوش ابن المهلب، فقد اشترك إبراهيم في حملة العلاء بن سعيد لقمع فتنة ابن الجارود الذي خرج على الأمير الفضل المهلبي.

بدأت مطامع هذا الرجل في الظهور في ولاية إفريقية، خاصة بعد رحيل "العكي" إلى المشرق والتفاف الجند البربري من حوله، غير أن وجود هرثمة كان كفيلا بأن يحول دون تحقيق هذه المطامع، وبرحيل هرثمة سنة 181 هـ، ظهرت مطامع إبراهيم بشكل واضح فسعى لمساعدة الخلافة العباسية وآزر واليها العكي حين ثار عليه الجند حتى استعادة الولاية رغم سخط أهل القيروان.

أعفى الخليفة الرشيد هرثمة من منصبه، وعين محمد بن مقاتل العكي واليا على القيروان في رمضان سنة 181هـ، فثار عليه الجند بسبب قطع أرزاقهم وتحريض فقهاء المالكية، وبالفعل سقطت المدينة في يد الثوار بعد هزيمة العكي على يد تمام بن تميم التميمي، فخرج أبراهيم بن الأغلب من الزاب ودخل القيروان في إطار مناصرته للوالي الشرعي، وهو في ذلك يتقرب من الخلافة حتى تم تعيينه بدلا من العكي.

- **أشهر أمراء الدولة الأغلبية:**

- إبراهيم بن الأغلب: مؤسس الدولة الذي تفاوض مع الخليفة الرشيد، ووجد الخليفة نفه مجبرا على قبول الوضع القائم من أجل المحافظة على ما تبقى للخلافة من نفوذ في بلاد المغرب، إضافة إلى الخطر الذي كانت تشكله دولة الأدارسة التي تطمح إلى توحيد المغرب والمشرق في ظل دولة علوية واحدة، هذا فضلا عن خطر الجند بإفريقية وتهديدهم المستمر لولاّة القيروان.

وكان أول ما قام به إبراهيم بن الأغلب هو استشعار خطر الجند وما أحدثوه من متاعب للولاة، فقرر نقل العاصمة من القيروان إلى قصر القديم (على بعد ثلاثة أميال)، فشحنها بالرجال والسلاح وحصّنها لعدم ثقته في الجند العربي، لذلك نجده يستكثر من جند السودان.

- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (196- 201هـ): حكم خلفا لأبيه، فاستقامت له الأمور واستقرت، ولكنه انتهج سياسة ضرائبية سيئة، أسفرت عن سخط الناس عليه، وظل أبو العباس بالحكم مدة خمس سنوات ثم مات من جرَّاء قرحة أصابته.
- زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (201- 223هـ): تولى أفريقية خلفًا لأخيه أبى العباس واستمر في هذه الإمارة حتى سنة 223هـ، فتمتعت البلاد في عهده بالرخاء والازدهار، فضلا عن التشييد والعمران، وقد وجه زيادة قدراته

العسكرية للقضاء على الثورات التي قامت بالمنطقة، كما اعتنى بالأسطول البحري. وفتحت في أيامه جزيرة صقلية على يد قاضي القيروان أسد بن الفرات.

- أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب (223- 226هـ): تولى الإمارة خلفًا لأخيه زيادة الله في سنة 223هـ، ومكث بها ما يقرب من ثلاث سنوات؛ تمتعت البلاد خلالها بالهدوء والاستقرار، ومنع أبو عقال صنع الخمور بالقيروان، وعاقب على بيعها وشربها، فكان لذلك صداه الطيب في نفوس الناس عامة، فضلا عن الفقهاء والعلماء.
- أبو العباس محمد بن الأغلب (226- 242هـ): تولى الإمارة خلفًا لأبيه الأغلب، وظل بها أكثر من خمسة عشر عامًا، اتسمت بالخلافات بين أبناء الأسرة الأغلبية، فضلا عن محاولة أخيه أحمد الفاشلة للإطاحة به والوصول إلى الحكم، يضاف إلى ذلك انتفاضات الجند التي لم يكتب لها النجاح بمنطقتي الزاب، وتونس.
- أبو إبراهيم أحمد بن محمد (242- 249هـ): وتميزت فترة حكمه بالهدوء والاستقرار، وقد غلب الطابع الديني على سلوكه، فكان يخرج في شهري شعبان ورمضان من مقر إقامته ليوزع الأموال على الفقراء والمساكين بالقيروان، كما اهتم بالبناء والتعمير، فزاد في مسجد القيروان، وجدد المسجد الجامع بتونس، وحصَّن مدينة سوسة وبنى سورها.
- أبو محمد زيادة الله الثاني (249- 250هـ): تولى خلفًا لأخيه أبى إبراهيم أحمد، ولم يستمر في منصبه سوى عام واحد.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد (250- 261هـ): خلف عمه أبا محمد زيادة في الإمارة، وقد اشتهر أبو عبد الله بأبي الغرانيق؛ لولعه بصيد الغرانيق، وبنى لذلك قصرًا كبيرًا، أنفق عليه أموالا كثيرةً، كما شيد الحصون والمحارس الكثيرة عى سواحل البحر المتوسط .

- إبراهيم بن أحمد (261- 289هـ): تولى أمور الحكم عقب وفاة أخيه أبى الغرانيق، وامتد عهده أكثر من ثمانية وعشرين عامًا؛ ظهر خلالها أبو عبد الله الشيعي، الذي استقطب إلى دعوته الشيعية عددًا من القبائل، ختم إبراهيم حياته بالجهاد في صقلية، حيث مرض أثناء حصاره لإحدى المدن، فمات ليُحمل ويدفن في مدينة بلرمو في سنة 289هـ.
- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (289- 290هـ): لم يستمر في الحكم سوى عام ونصف العام، حيثُ قُتل على يد ابنه زيادة الله، فبدأت عوامل الضعف والوهن تدب في أوصال دولة الأغالبة.
- زيادة الله بن أبى العباس عبد الله (290- 296هـ): آخر الأمراء الأغالبة، سقطت الدولة في عهده على يد أبي عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، فرّ من رقادة في 26 من جمادى الثانية عام 296هـ، فباتت المدينة سهلة المنال لأبى عبد الله الشيعي، فطويت بذلك صفحة الأغالبة.

الحواشي:

[1] بحاز إبراهيم بكير، **الدولة الرسمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، نشر جمعية التراث، القرارة، 1993م، ص 66.

[2] مؤنس، **مرجع سابق**، ص116.

[3] المرجع نفسه، ص123.

[4] محمود إسماعيل عبد الرزاق، **دولة الأدارسة حقائق جديدة**، ط1، مكتبة مدبولي القاهرة، 1991م، ص50–52.
محمود إسماعيل عبد الرزاق، **الأغالبة سياستهم الخارجية**، ط3، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2000م،

[5] محمود إسماعيل عبد الرزاق، **الأغالبة سياستهم الخارجية**، ط3، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2000م، ص19.